على طلخان (٢)

وفى ١٩٤٨ أعلنت الأحكام العرفية واعتقلت والتهمة عامل مشاغب، وعشت عالما آخر تعلمت، وحضرت مناقشات عديدة لم أنضم إلى أى مجموعة من المجموعات المتناحرة لكننى خرجت من المعتقل شخصا آخر.
من تسجيلات على طلخان

ويعود على طلخان إلى شبرا الخيمة فى بدايات ١٩٥٠ ليكرس نفسه قائدا نقابيا يحبه الجميع ويحترمه الجميع ويطارده الأمن ليلا ونهارا. ومرة أخرى تعلن الأحكام العرفية فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ بعد حريق القاهرة ويعتقل على طلخان والتهمة بدلا من عامل مشاغب «نقابى خطر» ويخرج على طلخان بعد أن تشرق شمس ٢٣ يوليو، ويعود مسرعا إلى نهطاى ليدعو الفلاحين إلى أن يرفعوا رءوسهم، لكن «الحوت» لم يستسلم بسهولة فهو لم يتعود على احترام القانون، فالقانون الذى أصدرته الثورة ينص على أن الحد الأقصى لإيجار الفدان هو ٢١ جنيها لكن «الحوت» كان يفرض على المستأجرين إيجارا يصل إلى ٦٠ جنيها، ومرة أخرى التف الشباب حول المناضل العائد من المعتقل وقرروا تأسيس جمعية سرية جديدة أسموها «الحاج عودة» ومرة أخرى علقت لافتات على باب الجامع وعلى أبواب البيوت وفى الحوارى «كل اللى يأجر أرض أزيد من سبع أمثال للضريبة تقلع زراعته والتوقيع.. الحاج عودة».

وحتى هذه الأثناء لم تكن يد الثورة قد وصلت بعد إلى نهطاى، فلا على طلخان ولا الشباب حوله ولا الحوت نفسه كانوا يدركون حقيقة التغيير الثورى، ومن ثم فإن الكثيرين لم يخافوا من التحذير، ويأتى المساء ليأتى معه محراث يحرث أرض من لم يلتزم بتحذير الحاج عودة، وكان على طلخان قد حصن نفسه فأرسل عشرات البرقيات إلى مجلس قيادة الثورة وإلى الصحف وجاء الرد سريعا بأسرع مما توقع الجميع، وتلحق يد الثورة بنهطاى لترفع عنها ظلم الحوت، وتزف البلد كلها على طلخان بالطبول والزغاريد.

إنهم ينتقمون للظلم الذى فرض عليهم لأجيال وينتقمون لسنوات السجن التى قضاها على طلخان بسبب علقة العمدة.

ويمضى على طلخان مناضلا من أجل العمال ومعهم وأصبح قائدا نقابيا مرموقا وعندما تصدر قوانين التأميم وتتضمن حق العمال فى انتخاب ممثل عنهم فى مجلس الإدارة انتخب عمال شركة إسكو على طلخان عضوا فى مجلس إدارة الشركة.

القاعة فخمة، الأرقام التى تعرض عليهم بمئات الآلاف وكان أعضاء المجلس يظنون أن هذا «الجاهل» لن يفهم وسيرضى بالغنيمة، وهى مكافأة عضو مجلس الإدارة ويصمت، لكن على لم يصمت وظل يشاغب ويناكف ويكتب الشكاوى للقيادات الإدارية وقيادة الاتحاد الاشتراكى والتفتت إليه الأنظار وينتخب عضوا فى اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى ثم عضوا فى لجنة مستقبل العمل السياسى «الحاج مسعود» أو «الحاج عودة» أصبح قائدا سياسيا وأصبحت كلمته مسموعة فى مجلس الإدارة لكن ظل كما كان ملتزما بالحق والعدل.. ولم يتربح مليما واحدا.

وعندما يعلن الرئيس السادات فكرة المنابر داخل الاتحاد الاشتراكى: منابر ثلاثة.. يمين - وسط - يسار وكان شرط تأسيس المنبر وقبول أوراقه أن ينضم إليه عشرة من أعضاء مجلس الشعب أو اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى ولم يكن الأمر سهلا، وتوقفنا عند حدود السبعة توقيعات ثم وقع قبارى عبدالله، ثم أتى رجل عجوز رفيع كسهم يوشك على الانطلاق شارب فضى مبروم بعناية وشعر فضى، أتى ومعه شخصان وقال وهو على الباب لا يمكن أن ننضم لمنبر يمين أو وسط إحنا عمال وفلاحين ولازم ننضم لمنبر خالد محيى الدين، وبعلى طلخان وزميليه اكتملت العشرة توقيعات وزادت توقيعا، واحد من الثلاثة كان يعرف أننا فى مأزق الحصول على عشرة توقيعات فأصر على أن يعين أحدهم سكرتيرا عاما للمنبر، فجأة انتفض على طلخان ثائرا «إحنا ما اتفقناش على كده، والراجل ده جاى عايز منصب، أنا مش عايز منصب، أنا كفاية علىّ إنى أشتغل مع خالد محيى الدين» وتراجع زميله، وساعتها أدركت أننى أمام رجل مختلف، وفيما أستمع إلى تسجيل صوته على الشرائط تخيلت «الحاج مسعود» أو «الحاج عودة» وهو ينضم إلى منبر اليسار، وظل عم على معنا حتى جاءت انتفاضة ١٩٧٧ وحملات القبض العشوائية على أعضائنا، زميلاه انسحبا بهدوء، هو بقى شامخا ووقف على يسارنا يرفع أشد الشعارات

ثورية، لكنه يخضع للأغلبية، حسه العمالى المتوقد، وانتماؤه الطبقى الحاسم جعلا منه معيارا لنا، تصرفه التلقائى وغير المزخرف بشعارات متقنة الصياغة أو مواقف انفعالية كان معيارا أمامى أهتدى به للتعرف على الموقف الصائب فى خضم أحداث عاتية تقلبت على التجمع، السهم المنطلق ظل سهما منطلقا لم يخف بل كان يفرض علينا ألا نخاف، ولم يتردد بل كان يملى علينا إرادة الصمود، وكان يختلف أحيانا مع الأغلبية فيستعيد ذكريات النضال القديم يكتب منشورا برأيه المختلف ويوزعه على القيادة، وتتراكم الأيام والسنوات ونقترب من المؤتمر الثالث ويأتى عم على حزينا ومنكسرا ليقول: يا زميل، العين اللعينة لم تعد ترى، واليد اللعينة لا تتحرك ولا تكتب ومش قادر أمشى فأرجوك اسمح ألا أترشح فى أى موقع وكفاية كده، لم أجادله فأنا أعرف كم هو عنيد، لكنه أعطانى لفافة من بيانات راجيا أن أوزعها على الزملاء فى الأمانة العامة، يعتذر فيها عن عدم مواصلة النضال معنا، ويمنحنا بعضا من تجاربه، وبعضا من حكاياته وحكاية الحاج مسعود، والحاج عودة، ثم يمنحنا نصائحه ولم أزل أذكر آخر كلمات الرسالة «هذا الحزب أجمل شىء فى مصر وهو أجمل شىء فى حياتى فتمسكوا به، وحافظوا عليه».

وبعدها بفترة وجيزة ذهبت لأتلقى فيه العزاء، ورأيت جموعا عمالية تحكى عنه وكأنه قديس، وحكى لى أحدهم ونحن فى مجلس العزاء بعضا من المواويل التى كانت تغنى على مقاهى شبرا الخيمة مديحا فى زعيمهم على طلخان.

على طلخان راجل مجدعته عند الناس معروفة

أبوموسى نقبه وكرامته عند الكل معروفة